رأي القدس

أيمن الظواهري والعشاء الباكستاني

■ تظاهر آلاف الباكستانيين يوم امس احتجاجاً على غارة جوية امريكية على منطقة قبلية حدودية مع افغانستان اسفرت عن مقتل 18 شخصاً بينهم مجموعة من الاطفال، الامر الذي ربما يؤدي الى وضع الرئيس الباكستاني برويز مشرف في موقف حرج للغاية.

فالغارة الامريكية تمت دون التنسيق مع الحكومة الباكستانية، واستهدفت منطقة مدنية، ودون ان تحقق هدفها في اغتيال الدكتور ايمن الظواهري الرجل الثاني في تنظيم «القاعدة».

ومن المفارقة ان الرئيس الباكستاني، القى باللوم على القبائل الباكستانية في المناطق الحدودية، وطالبها في كلمة القاها امس بعدم ايواء «ارهابيين» حتى لا تعرض نفسها للقصف. ولم يوجه كلمة نقد واحدة للولايات المتحدة وقيادتها العسكرية التي انتهكت السيادة الباكستانية بطريقة استفزازية.

وهذه ليست المرة الاولى التي تغير فيها الطائرات الامريكية على قرى باكستانية بحجة مطاردة عناصر تابعة لتنظيم القاعدة، فقد قتلت قبل ايام ثمانية باكستانيين في غارة مماثلة مما حدا بالحكومة الباكستانية الى الاحتجاج رسمياً لدى البيت الابيض.

فاذا كانت اجهزة الامن الامريكية تملك معلومات موثقة حول وجود الدكتور الظواهري في المنزل المستهدف بالقصف، فانه من الحري بها ان تعرف مكان اختبائه قبل وصوله لحضور دعوة العشاء، وأماكن تحركاته الاخرى.

وحتى اذا كان موجودا في المنزل نفسه فقد كان من المنطقي ان تنتظر خروجه لكي تطلق صواريخ طائراتها اليه، تجنبا لإزهاق ارواح ابرياء لا ذنب لهم غير كونهم موجودين في المكان بعينه.

لا نعتقد ان الدكتور الظواهري على هذه الدرجة من الاستهتار بحيث يحضر حفل عشاء في حضور اخرين، ويعرض امنه الشخصي وحياته للخطر. فالرجل يتمتع بعقلية امنية وعسكرية جبارة، واستطاع ان يضلل مطارديه على مدى خمس سنوات تقريبا، ويهزم بحنكته ودهائه كل اجهزة التجسس الامريكية والباكستانية.

الادارة الامريكية بمثل هذه الغارات توجه ضربة قاتلة لمصداقية اخر حلفائها في الحرب على الارهاب، اي الرئيس مشرف، فالرجل تعرض لثلاث محاولات اغتيال كادت احداها ان تكون مميتة، ومثل هذه الغارات، والضغوط الامريكية الاخرى التي تدفعه باتجاه اقامة علاقات مع الدولة العبرية، ستعطي المزيد من الذخيرة سواء لمعارضيه او الذين يخططون لتصفيته جسديا من انصار الجماعات الاسلامية المتطرفة.

الدكتور الظواهري ربما يكون خارج المنطقة الحدودية الباكستانية الافغانية، بل ربما يكون في دولة ثالثة لا يتوقع احد ان يكون فيها، فالاشرطة المصورة التي ظهر فيها اخيرا وبثتها بعض المواقع الاليكترونية والقنوات التلفزيونية على درجة عالية من الجودة، ولا تدل على ان الرجل مطارد.

الغارة الامريكية المثيرة للجدل في منطقة القبائل، تكشف مدى فقر اجهزة الامن الامريكية وتخلف ادائها، مثلما تضيف اثباتا جديدا على فشل الحرب الامريكية على الارهاب.

مأزق المعارضة بين الوطنية المهددة والديمقراطية المؤجّلة

مطاع صفدي *

■ تظل المجتمعات قبل الصناعية غير واعية لدلالات التكوين المدني لافتقارها إلى البنى المؤسسية، وسيطرة التماثلية على مختلف قطاعاتها بحيث يصعب تمييز أدوار تعددية ما بين وحداتها السكانية. فالكل والواحد لهما طبيعة متشابهة. وليس ثمة ظهور للفرديات المستقلة. وبالتالي من الخطأ إطلاق التوصيف الحداثوي على الحياة السياسية العامة الذي يميز بين اتجاهات اليمين واليسار والوسط، أو يساعد على إنشاء أحزاب بمعنى الكلمة، متنافسة على أساس برامج وتوجهات موضوعية، ومتباينة تعددية في أهدافها. لذلك لا يمكن النظر الى المتغيرات، من ضمن سياق يتمتع بمقدمات محددة، ويؤدي الى نتائج متوقعة أو متصورة. فالاختلاف بين حال وأخرى لا يخضع لقانون واضح. وكثيراً ما تقع التحولات العامة، بشكل عابر أو مفاجىء، كأنها نوع من الصُدف الطارئة، غير قابلة للتحليل العقلاني، وإنما يضطر الفهم أن يلجأ الى مجرد التسويغ والتبرير،دون أن يكون ذلك متطابقاً بالضرورة مع منطق الأهداف كما هي.

هكذا مثلاً سيطرت فكرة الاشتراكية على معظم دول العالم الثالث بعد فوزها بالاستقلال الوطني مباشرة، وكأنما كانت مجتمعاتها ناضجة التكوين الطبيعي، ما بين البرجوازية والبروليتاريا، وهو الوضع الذي لا يمكن أن تصل اليه إلا المجتمعات الصناعية، وبعد تطورات بنيوية في علاقات الإنتاج عبر فترات تاريخية متتابعة تتطلب أجيالاً من المتغيرات وحالات الوعي المصاحبة لها. هذا الوهم وما يشبهه كذلك من الأدلجات المجلوبة الأخرى، فتح الطريق أمام قيام الدولة الشمولية التي استحوذت على مختلف خطوط التطور، وأخضعتها لنماذج من التكييف والقولبة، المضادة غالباً لطبيعتها، والمتجاهلة لواقعها وإمكانياتها التي تخصها. مثل هذه الإكراهات الفوقية المفروضة على الدويلات الطرية العود، ساهمت موضوعياً في إحباط مستقبلها التنموي الذاتي، وحرفته عن مساراته الأصلية. وجعلت مجتمعاتها ذات الطبيعة الهلامية عرضةً لقولبات قسرية تخترعها الفئات الحاكمة كيما يتاح لسلطاتها الإمساك بمختلف مفاتيح التطور، ومفاصل التكوينات المستجدة، ووضع خطوط الحراك الاجتماعي تحت رقابتها الأمية والجاهلة المتجاهلة لأبسط معطيات الواقع وظروفها المتغيرة تلقائياً. فتأتي تدخلاتها الطائشة لتفسد مقدماً كل خمائر التقدم النوعي والتاريخي الذي تنادي به وتنتظره ما يسمى بالطلائع المثقفة المخضرمة والعاصرة لمرحلة الاستقلال ما قبلها وما بعدها.

إنه قانون التطور المجهض بإيقاعاته الثابتة والمتشابهة بين مختلف دويلات العالم الثالث تقريباً، ومن بينها خاصة الكيانات العربية التي عانت جلّها من صدمة الانحلال المبكر؛ وقد فاجأها منذ خطوات البدايات الاولى الخاطئة. وهو الوضع الذي مهّد لظهور دولة القمع من جهة، كما ساعد من جهة أخرى في دعم ركائزها وتسليح أجهزتها الامنية، وتغلغلها في العمق من أنسجة المجتمع، ومفاصل هيكليته العامة، وفتح كل الأبواب أمام اختراق شبكية الفساد بأشكاله العامة. وامتد سريعاً الى مختلف مؤسسات الحكام والمحكومين معاً. صار التسلط والفساد توأمين يكتسحان معاً كل الساحات، بشكلان الفعالية الرئيسية المتحكمة ببقية الفعاليات، والموظفة أولاً لحسابها.

ما يقال عن انهيار لتجارب العالم الثالث وانتكاس مختلف المشاريع التّنموية الجادة، وضياع ثرواتها الوطنية مجدداً، وانحسار أدوارها السياسية المعقودة عليها آمال شعوبها، في مجال الصراعات الدولية ومتغيراتها المصيرية، إنما يعود أولاً لتبديد فرص النهوض الحقيقية الكثيرة التي تتحمل مسؤوليتها التاريخية أنظمة الاستبداد والفساد التي اختطفت جميع مبادرات العمل والفكر والتنظيم وعزلت شعوباً كاملة عن المشاركة في تسيير أبسط شؤونها العامة، وكبّحتْ إرادة التغيير بكل وسائل العنف المادي والمعنوي. والمثال النهضوي العربي بخاصة يأتي في مقدمة هذه القصة البائسة، التي لم تنهض خلال فصولها الدرامية، إلا أسوأ قوى الاستغلال والتسلط والنهب العام والخاص. فالمحصلة السياسية المرة لانهيار مشروع النهضة الثانية المعاصرة لم تتجسد فقط في إنتاج أردأ أنظمة الحكم المعروفة في تاريخ التطور الحضاري وحدها، ولكنها، وهذه هي النتيجة الأفجع، أجهضت نشوء المجتمع المدني بأبسط خصائصه الإنسانية والحقوقية والثّقافية.

فما تسلّمَتْهُ الأجيال الصاعدة اليوم ليس سوى حطام نهضة أصابتها الشيخوخة وهي لم تفارق طفولتها الأولى بعد. عقائدها ارتدادية نحو عهود التكايا والزوايا وصراعات الملل والنحل. ثقافتها أمية القراءة وضحالة الإبداع، وسيطرة مطلقة للصور السمعية البصرية وشائعاتها العابرة، واقتصادها، ثروات فاحشة محتكرة في أيدي أمراء السلطة والعشيرة والحزب، ويتداولها فقط سماسرة الداخل والخارج، بينما يعمّ العوز والفقر وأشباهه غالبية الناس. آفاق العمل مسدودة أمام أجيال الشباب في أكثر أصقاع العالم الثالث، وتحديداً في أقطار العرب والإسلام، حتى في بلاد شيوخ النفط وأمرائه. فالبطالة هي صنو الجهالة، وبهما معاً تزدهر شعائر الخرافة والتعصب أو بدائلها: العنفُ والإرهاب والهلوسة الغيبية. اما التداعيات السياسية فمحصورة بين أرباب السلطان وحواشيهم. لا شأن في خيارات الدولة وقراراتها العليا لأحد. وقد يخيّل للحاكم المستبد أن إرادته المطلقة سارية المفعول فيما يخصّ بلدَه، وفي كل مكان آخر. يبلغ غرور العربدة والنّزق الانفعالي بالمتسلطين حدّ الاستهتار بأولويات المبادىء المنظمة للعلاقات الدولية ومصالح أقرانهم الأقربين، جرياً على عاداتهم في احتقار شعوبهم والاستهانة بردود أفعالهم على تحدي الغيّ السلطاني واللصوصية العلنية الوقحة.

لم يعد لمعظم الأنظمة العربية ما يدعم (شرعيتها) سوى مدى العنف الطغياني الذي استخدام أسوأ وسائله المباشرة المجلوبة من أظلم عهود البربرية. فالقتل الفردي والجماعي، المادي أو المعنوي، هو الحل الأسرع والأفعل للإجهاز على المعارض، الذي يُعتبر في عداد المنافس المهدّد لملكيات المتسلطين اللامحدودة. وعندما اختنقت جذوة النهضة في مهدها، وانحرفت جميع مشاريع التنمية الإنسانية والاجتماعية عن غاياتها العامة، لتغدو مجرد صفقات فوقية لأهل السلطة وحدهم، تضاعف من ثرواتهم الفاحشة ومن نفوذهم، وتقوّى من مواقعهم ضد بعضهم بعضاً أولاً؛ في هذه الحالة الاستثنائية الشاذة من تطور الاجتماع الإنساني، لن تغطي ساحة العمل العام سوى تلك الفضائل، من سماسرة السلطة والمال أولاً، تسرح وتمرح بحماية عسس الأمن والقمع، فتصبح مسألة التكوين السياسي، وظهور منظمات حزبية حقيقية، وبروز هيئات معارضة تعتمد مناهج معرفية واضحة، وتمارس حقوقاً طبيعية أولية في طرح الأفكار، وممارسة الحوارات والنقاشات العلنية، تصير هذه المسألة من أصعب المداخل الضرورية للإفراج عن نواة المجتمع المدني المطمورة تحت حطام النهضة المجهضة.

ولكن حينما يحدث أن تقع صدمة الاعتراض المداهمة، ومن الجهة أو المكان غير المنتظر، من الخارج الإقليمي المجاور والدولي الأبعد، ثم تتصاعد المداهمة الى مستوى التهديد البنيوي بانهيار الكيان، ودون التمييز بين حكامه ومحكوميه، بل أكثر من ذلك، عندما تحس فطرة الشعب المضطهد أنه هو المقصود المركزي من هجمة الدمرقطة الزائفة الأجنبية، وبحجة الاقتصاص من مسؤوليه المدانين أصلاً من قبل شعوبهم، بتاريخ طويل غاصّ بأنواع الارتكابات كلها، فكيف يمكن توقع الموقف من هذا المأزق الأخطر، هل سيرتد الشعب المعذب الى مجرّد فعل غرائزيّ قد يجمع داخل شرنقة (الوطنية) بين أعداء الأمس واليوم بين الضحايا وجلاديهم معاً، وتحت شعيرة التضامن الارتكاسي الذاتي ضد التهديد الأجنبي؟ أم أن الموقف من المأزق المصيري سوف يكشف حقيقة أعمق مطمورة تحت هذه المسرْحَة الصارخة للعبة الداخل / الخارج، فتنطلق المعارضة الشرعية من صميم الوطن المقموع ككل، مفسحاً للمرة الأولى، لولادة المجتمع المدني دفعة واحدة، ومن خلال هذا الفعل الواحد الشامل الذي هو المعارضة النهضوية، وليس السياسوية فحسب، وضد الإماتة الذاتوية المديدة، وبحراسة العدو الواحد، بجناحيه على حديّ الوطن نحو الذات ونحو الآخر.

إنه العدو الواحد المعروف والمكشوف دائماً، وقد حانت لحظة محاسبته، وليس هناك من يحاسبه ويمانعه تاريخياً مصيرياً سوى انبعاث المعارضة تحت شارة النهضة المدنية المنوعة دائماً.

* مفكر عربي مقيم في باريس

السعودية: الحجاج بين الدين والسياسة

د. مضاوي الرشيد *

■ لا يقبل النظام السعودي اي انتقاد على طريقة تعامله مع ضيوف الرحمن، فإن دهس الحجاج في دهاليز مكتظة او اشتعلت النيران في خيامهم او فتكت فيهم الاوبئة المعدية او تأخرت طائرات الخطوط الجوية السعودية في ايصالهم الى غايتهم في الوقت المعين او انهارت على رؤوسهم المباني، يفسر هذا عادة على انه قضاء وقدر يجب على هؤلاء الحجاج ان يتقبلوه ويشكروا خالقهم على ميتة قريبة من بيت الله الحرام خاصة خلال تأدية فرض من اهم الفروض الدينية.

وعلى خلفية الكوارث الصغيرة والكبيرة والتي ترافق موسم الحج تكتظ الصحف السعودية وشاشات التلفاز وتختنق المنابر الاعلامية من كثرة ترديد الشكر والثناء والامتنان لمن نصب نفسه حاميا للحرمين. هذه المسرحية السنوية تكررت هذا العام كالعادة رغم انهيار مبنى غير مرخص له باستقبال الحجاج حسب المصادر الرسمية مما ادى الى مقتل عشرات الحجاج. جاءت بشكل عاجل الخطابات التي شرحت ظروف الانهيار اذ انه ارجع الى كون هذا المبنى من مبان يتجاوز عمرها الاربعين سنة. ومن المستغرب انهيار مبنى كهذا خاصة اننا نعلم ان في العالم مباني يزيد عمرها على المئات من السنين دون ان تتهاوى على رؤوس اصحابها. مأساة عشرات بل ربما مئات الحجاج الذين زهقت ارواحهم بسبب انعدام الرقابة السعودية وتفشي الانتهازية بالاضافة الى الركض وراء الربح السريع الذي ادى الى استغلال هذا الموسم الديني بشكل مفضوح وقبيح من قبل الطامحين للثراء السريع ولو على حساب ضيوف الرحمن ترجع الى هذه العوامل وليس الى عتق المبنى المنهار.

يشترك النظام مع تلك الشريحة الاجتماعية المستغلة للحج في ترويج ما يسمى بالسياحة الدينية وهو مصطلح جديد بدأ يطل علينا خاصة بعد فشل مشاريع النظام السياحية الترفيهية والتي بدأها في منطقة عسير. من هذه المشاريع مشروع انخراط المتحف البريطاني في مهمة ترويج السياحة الاثرية وجلب السياح الاجانب الى السعودية من اجل تعريفهم بالاثار القديمة خاصة مدائن صالح وغيرها من المناطق ذات الاهمية السياحية.

لم يكتب لهذا المشروع النجاح المتوقع خاصة وانه تزامن مع احداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) والتي استغلتها بعض المصادر الاعلامية لتصور السعودية وخاصة منطقة عسير وكأنها معقل الارهاب.

ورغم ان احد المسؤولين في المتحف البريطاني كان قد تصدر الرحلات الاولى الا انهم اضطروا للتخلي عن المشروع بعد مدة قصيرة. وحسب رأي احدى المشرفات على مشروع السياحة السعودية في لندن لا تزال البلد وسكانها غير متهيئين للمشاريع السياحية حسب معايير الغرب، اذ ان معظم السياح تململ من القيود المفروضة عليهم ومن الخطاب الدعائي الذي روجه المرشد السياحي الذي اصطحب المجموعة الاولى من السياح.

بعد فشل مثل هذه المشروعات السياحية نجد النظام يلتفت الى اقدس الاماكن واطهرها ليحوله الى مشاريع تستغل من قبل الانتهازيين والذين تربوا على اسلوبه في التعامل مع الفرص القليلة. وهو بذلك يكرس ممارسات عمرها من عمر الدولة السعودية.

هذه السنة لم يكن انهيار مبنى الحجاج في مكة المكرمة الحادثة الوحيدة خلال هذا الموسم. جاءت عملية تفريق الحجاج اللبنانيين حسب مصادر اعلامية عربية ليلة السبت 6 كانون الثاني (يناير) بطريقة فجة قبيحة عندما بدأ هؤلاء يرددون شعارات تدين اسرائيل والولايات المتحدة لتسطر بالخط العريض ملامح سياسة النظام السعودي في بلاد الحرمين. يدين النظام هؤلاء الحجاج لانهم حسب رأيه «يستغلون» شعائر الاسلام لغايات سياسية بحتة كرفض مخططات الدولة الصهيونية والسياسة الامريكية. وهذا الخطاب السعودي ليس بالجديد اذ انه استعمله في السابق ضد الحجاج الايرانيين الذين كانوا دوما يهتفون شعارات ضد اسرائيل والولايات المتحدة. كانت المواجهة في السابق مع بعض هؤلاء تؤدي الى العنف والقمع.

فمع مظاهرة اللبنانيين السلمية يظهر لنا مدى تناقض النظام السعودي وازدواجيته فما هو حرام على حجاج لبنان او الايرانيين من قبلهم حلال عليه، فهو الوحيد الذي يحق له استغلال موسم الحج لكسب بعض الاهداف السياسية البحتة خاصة عندما يحاول هذا النظام ان يبني شرعيته الدينية على اكتاف الحجاج فيظهر نفسه وكأنه الام الحنون والاب الحامي والعين الساهرة على راحة ضيوف الرحمن. مع الاسف هذا الخطاب الدعائي السياسي اولا واخيرا لم يصمد امام جثث الحجاج التي دهست في مبنى مكة بعد انهياره بشكل قوي. وكيف يهتف الحجاج المسلمون بشعارات ضد اسرائيل بينما لا حرج في استغلال منابر مكة طيلة السنة للدعاء لولي الامر والاشادة بانجازاته. السياسة في مكة حرام لغيره وحلال له.

ولا يتوقف الامر عند هذا الحد بل نرى النظام يلقي التهم على يمينه ويساره ويسمي من استغل الموسم هذه السنة اذ انه يأخذ على الجعفري مثلا انتهازيته واستغلاله لقضية الحجاج العراقيين الذين لم يصلوا هذه السنة بل ردوا الى ديارهم من قبل السلطات السعودية من اجل تغطية مآزقه المحلية وما اكثرها في عراق اليوم. ولكن يجب ان نعترف ان انتهازية الجعفري لا تختلف اختلافا جذريا عن انتهازية النظام السعودي تاريخيا او حتى في يومنا هذا. وان كان الجعفري وامثاله قد جاء الى العراق على ظهر دبابة امريكية لا يجب ان ننسى ان النظام السعودي نمى وترعرع في احضان القوة العظمى بريطانيا في بداية القرن العشرين. وان كان الجعفري مدينا للقوات الامريكية الغازية التي أوصلته الى قلب المنطقة الخضراء من خلال انتخابات «حمتها» قوات الاحتلال فحامي الحرمين هو ايضا مدين للقوات الامريكية والتي اجلت سقوطه عام 1995 بعد ان محت قوات صدام دولة الكويت ووقفت على مشارف حقول النفط. على النظام السعودي ان لا يزايد على الجعفري وحكومته اذ ان من كان بيته من زجاج عليه ان لا يرشق الاخرين بالاحجار.

وفي عصر يتسابق فيه الزعماء العرب وما يسمى بالنخب الحاكمة الى موالاة القوى العظمى وكسب رضاها مقابل كسب الوقت والبقاء على الكراسي، لا يسعنا الا ان ننظر بروح الفكاهة والنكتة لمسرحية تراشق التهم بشكلها الحالي بين النظام العراقي ونظيره السعودي ونجد انفسنا مشاهدين لحالات متساوية في مدى انخراطها في مشروع واحد منطلق من نفس المصدر والمنطق.

يستغل النظام السعودي موسم الحج كما استغله غيره من الزعماء العرب والمسلمين ولكن النظام السعودي له خصوصيته الفذة. نراه دوما يحاول ان يزايد على اسلام الاخرين فهو فقط بحكمته الحامي لهذه البقعة المباركة من ظهور ما يسميه هو وعلماؤه بالشرك المختلف الانواع والاشكال. خلال موسم هذه السنة تم القاء القبض على عالم دين عراقي يحمل الجنسية الايرانية بعد ملاسنة وعراك مع احد اعضاء هيئة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. جاء الاعتقال بعد ان اصر هذا العالم على اقامة الصلاة على التربة الحسينية ادت الى مشاجرة انتهت بالسجن. وبعد توسط القنصلية الايرانية يبدو ان الهيئة اطلقت سراح هذا العالم. هذه الممارسات يستغلها النظام ليبين ليس فقط للشارع المحلي المحتقن من انفتاح النظام والذي بدأت ملامحه تظهر بشكل جلي للشعب السعودي بل للعالم الاسلامي بأجمعه مدى التزامه بالتوحيد وحربه الدائمة على الشرك ومظاهره ومدى صفاء عقيدته وممارساته هو. مرة اخرى تظهر لنا الانتقائية والازدواجية السعودية. فبينما يتململ الشارع السعودي من تفشي الفساد الاخلاقي وانعدام الامن الاجتماعي وانتشار السحر والشعوذة في طول البلاد وعرضها، نجد الهيئة مشغولة بمراقبة عالم العراق الشيعي. نجحت هذه الهيئة خلال اكثر من سبعة عقود في ترويج نمط كاريكاتوري للاسلام ولم تستطع ان تقضي على انحراف المجتمع وكذلك القضاء على الممارسات التي توصف عادة بالشركية. ولكنها شوهت صورة الاسلام ورسالته من اجل ان تحافظ على مظاهر الدين فقط والتي يعيش بها النظام السعودي شرعيته. لماذا لا تعترض هذه الهيئة على الصور المعلقة في الشوارع والمدن والتي تظهر تسلسل ولاة الامر وتزخرف الارصفة وخلفية السيارات والمباني العامة.

نعرف بالطبع موقف الهيئة من مثل هذه الصور «الوثنية» والتي لم تسلم مكة نفسها من وجودها ولكنها تمر امام صور الملوك دون ان تسجل اي اعتراض ولو معنوي. عجبا لهذه الهيئة التي تحرم على حاج شيعي الصلاة في موقع يختاره وبالطريقة التي تعود عليها ورسختها ثقافته المحلية بينما تحلل ان يتصبح المواطن في بلاد الحرمين ويتمسى ببورتريهات ولي الامر ذات الحجم الكبير. هذه البورتريهات تصطف على الشوارع كالعين المراقبة لها نظرة حادة تختلط بالاكراه ولها بسمة صفراوية تتجاوز ابعادها تلك المرتبطة بالموناليزا في متحف اللوفر الفرنسي.

لقد تحولت المدن السعودية الى متاحف اثرية من كثرة ما اصطف على جدرانها من صور قديمة وحديثة لولاة الامر. فقد تحولت المؤسسات والمرافق العامة والمباني والمطارات الى قاعات عرض لصور اشبه ما تكون بالاصنام التي تذكر المرء وتحفر في مخيلته صور الحاكم خوفا من ان ينتاب المحكوم نوع من فقدان الذاكرة يوما ما فينسى من هو الاب. اما آن لهذه الهيئة ان تنشغل بتنظيف بنيها اولا من انواع الشرك المزعوم قبل ان تنقض على حجاج بيت الحرام؟ اليس لها من المشعوذين المحليين ما يشغلها عن التعرض للمسلمين القادمين من خلفيات ثقافية وحضارية قد تختلف بعض الشيء عن الثقافة المحلية؟ الا تعلم هذه الهيئة ان الاسلام انتشر وازدهر ليس بسيفها او سيف ولي امرها بل بقوة هذا الدين على احتضان واستيعاب الاختلاف والتعددية الثقافية لمجتمعات وحدتها كلمة القرآن وفرقتها العادات والتقاليد.

فتآقلم الاسلام مع هذه الثقافات وتأقلمت معه ونتج عن ذلك حضارة ثرية واختلاف اثنت عليه السيرة النبوية. ومهما شهرت الهيئة من سيوف لن تستطيع ان تقضي على هذه التعددية ولكنها فقط تقوم بأداء دورها في المزايدة على اسلام الاخرين لتكسب بذلك مكاسب كان النظام قد بدأ بخسارتها امام جمهوره المحلي والذي يتطلب مثل هذه التصرفات المشينة. نتساءل لماذا لم تغر الهيئة على الاسلام عندما دنس قرآنه في معتقلات الولايات المتحدة كما غارت عليه من «التربة الحسينية»؟ لماذا لم تستشط بالغضب على فن الاستهزاء باعلام الاسلام واولهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) في بلدان اوروبية عن طريق الرسم والكاريكاتور ام انها لا تستقوي الا على الضعيف ولا تتسلق الا الجدران القصيرة؟ لماذا لا تهتز مشاعرها من اعلانات الفضائيات الممولة من قبل النظام السعودي والتي تردد ليلا نهارا مواعيد برامجها الراقصة الساقطة وتصر على ان هذه البرامج ستأتي للمشاهد العربي على «توقيت مكة المكرمة»؟.

قبل ان يبدأ المشروع الوطني العظيم الهادف الى الحوار مع الاخر يجب على الهيئة ان تراجع برنامجها ولتتوقف عن صب جام غضبها على الحاج المسلم والمواطن البسيط بينما تبقى «علية» القوم خارجة عن نطاق عملها واختصاصها. لتلتفت هذه الهيئة الى من فتك بالمجتمع وفك روابطه وابتلاه بجميع آفات العصر الحديث ولتصرف اهتمامها بأمور تتجاوز المزايدة على المسلمين ودينهم وممارساتهم خدمة لولي الامر الذي ربط شرعيته منذ القدم بمقولة حرب الشرك والمشركين.

التوحيد ليس مسابقة تحت جناح هذا الامير او ذاك وكذلك هو ليس جائزة تفرق على الفائزين. كذلك التوحيد ليس هرولة بثياب قصيرة وعصي طويلة محصنة بعسكر الامام. بل هو عقيدة ثابتة يشترك فيها اهل القبلة على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم رغم انف النظام والهيئة معا. لم يحصر التوحيد يوما ما بطريقة واحدة او وقفة خاصة في الصلاة كذلك لا يقيد التوحيد بالايدي المكتفة او المسدلة او بقبر يمسح ويسوى ترابه او بقبة تبنى عليه. التوحيد ابعد من هذا بكثير.

استغلال موسم الحج سياسيا من قبل النظام له وجوه متعددة. وما عمل الهيئة الا احد هذه الوجوه. ضيوف الرحمن سيظلون ضيوف البيت العتيق ولن يستطيع النظام ان يخلط الاوراق ويعتبرهم ضيوفه هو. هؤلاء الحجاج يأتون على حسابهم الخاص ويدفعون ما جنته ايديهم من اجل اكمال دينهم وتحقيق حلمهم واي خدمات يقدمها النظام السعودي لا تأتي بلا ثمن فهو وشريحة كبيرة من المستثمرين يحصدون الارباح الطائلة من خلال اجارات للعقارات التي يستأجرها الحجاج والخدمات التي يشترونها. واقل ما يقال في هذا الموضوع ان امن وسلامة الحجاج هو مسؤولية من يدعي خدمة بلاد الحرمين. ومن الواجب ان لا تسلط سيوف الهيئة على هؤلاء او تقيد حريتهم الفكرية في سبيل ارضاء النظام السعودي ومن يقف خلفه. ان كان النظام قد تمرس في استعباد من ولدتهم امهاتهم أحراراً في الداخل السعودي وفرض نمط تعبدي واحد احد عليهم فهذا لا يبرر تعميم الاستعباد على المسلمين في شرق الارض ومغاربها واستغلال موسم الحج لممارسة هذا النمط من العبودية.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

انشقاق خدام: أهل السلطة وأهل المعارضة!

ميشيل كيلو

■ لا أريد أن أفوت مناسبة انشقاق الأستاذ عبد الحليم خدام، نائب رئيس الجمهورية السورية السابق، دون إبداء ملاحظة من غير الجائز أن أفوتها في حمأة الحرب الكلامية، التي أعقبت انشقاقه وما قيل فيه تأييدا أو إدانة أو استغرابا. هذه الملاحظة تنصب على ضرورة إجراء مقارنة بين سلوك أهل النظام وأهل المعارضة، في ما يخص علاقة أهل النظام بعضهم مع بعض، وعلاقتهم بأهل المعارضة، وبالعكس.

- لا يقبل النظام السوري أن تتحدث عن وجود تيارات وخلافات فيه، لأنه في رأي أهله نظام منسجم منضبط مترابط الحلقات، لا يوجد ولا يمكن أن يوجد فيه خلاف أو اختلاف، بما أنه ينتج نفسه من فوق: من قمته، التي يمسك بها شخص واحد يشرف إشرافا مباشرا على تسييره: من رأسه إلى أخمص قدميه. لكن أهل النظام يعترفون بصورة مواربة بوجود فروق تفصلهم بعضهم عن بعض، تأخذ أشكالا قلما يجد المرء نظيرا لها في النظم الأخرى، تتجسد في العداء بين المسؤولين، الذي يجعل كل واحد منهم يسعد ويطرب لأي نقد يقال عن غيره، ويفرح لأي سباب يطال شخصه وعمله.

هذه الظاهرة، التي عرفها تاريخ ما قبل النظم الديمقراطية، قامت على تمكين الحاكم من السيطرة على آلة السلطة والحكم عبر التلاعب بتناقضاتهما وتبايناتهما وبخلافات المسكين بهما. بما أن النظام السوري يعلن بفخر واعتزاز أنه نظام غير ديمقراطي، وأنه نظام حديدي لا تخترقه ولا يسمح أن تخترقه أية خلافات، فإنه يسعى إلى تجاوز تناقضاته الكثيرة عبر التلاعب بالتباينات والفروق القائمة بين مكوناته المتنوعة، التي يعتبر إدارتها مكونا رئيسا لفن الحكم، والتعايش معها ضروريا لأمن واستقرار أوضاعه.

ثمة وراء وحدة النظام الظاهرية حروب كلامية وعملية تخوضها أقسام ورموز ومكونات الحكم والسلطة، ومن النادر أن يقابل المرء مسؤولا إلا ويبادر إلى الهجوم في حضوره على غيره من المسؤولين، خاصة منهم أولئك الذين يقاسمونه العمل نفسه أو عملا قريبا منه، ويستطيعون معرفة خبايا نشاطه العام والشخصي وفضح ما قد يعود منصبه به عليه من مزايا ومغانم. وقد بدت تناقضات النظام وخلافات رموزه جلية في حديث الأستاذ عبد الحليم خدام وردود «الرفاق» عليه، وخاصة في حديثه عن فاروق الشرع، الذي رفض أن يقارنه أحد به، واتهمه بالجهل، حتى أنه لم يسمع بالحريري ولم يعرف من هو، رغم أنه بقي وزيرا لخارجية سورية طيلة نيف وربع قرن. كما ظهرت حقيقة العلاقات بين «الرفاق» خلال جلسة مجلس الشعب، حيث قال النواب كلاما لا يقال عن كلب، في من كانوا يعتبرونه إلى ما قبل أسابيع قليلة مفخرة الحزب والثورة - وقد وصفه شيخ عشيرة هو دياب الماشي بـ «الشلب» خلال مداخلة عصماء ضده - علما بأن بعضهم أتباع له أو من صنائعه. ليست المسألة هنا مرتبطة بالانتهازية وحدها، كما يمارسها قوم يعلمون أنه لا قيمة ولا رأي لهم. إنها تتعلق، قبل هذا وذاك، بطبيعة العلاقات بين رجال السلطة والمسؤولين عنها، وببنيتها التي تجعل وحدتها قائمة على الغنم والغرم، على الترهيب من جهة والامتيازات من جهة أخرى، وما يلازمهما من تناقضات وتباينات بين مكونات السلطة وممثليها، يصعب استمرار حكم الفرد بدونها. أليس أمرا منطقيا أن يتوقع المرء انشقاقات سلطوية دائمة في نظام تشغله آليات كهذه؟. أليس أمرا طبيعيا أن لا يجد النظام طريقة تحول دون انشقاق مسؤولين جدد عنه غير منع معظم كوادره وقادته من مغادرة البلاد، كما تقول معلومات وشائعات كثيرة؟.

يختلف موقف المعارضة من السلطة عن مواقف أطراف النظام بعضها من بعض، ليس فقط لأن المعارضة تريد أن تكون ديمقراطية، وتجد نفسها مجبرة على تقديم نموذج آخر من التعامل مع الآخر والذات، بل لأنها تمتلك نظرة إلى واقع سورية ومشكلاتها تختلف عن نظرة النظام، وتقوم على أولوية المصالحة الوطنية، التي لا تمنع النقد والصراع الفكري والسياسي، وإنما تتطلبه وتفترضه وتعطيه مضمونا توحيديا، وتعتبره أداة تنقية الحياة العامة من الفساد، وبناء فضاء مفتوح على الوحدة بفضل التنوع وذلك الضرب من الاختلاف والخلاف، الذي يرقي الحياة العامة ويمدنها، ويبعدها عن التمزق الذاتي والحكم الفردي والنظام القمعي. في هذا النهج، ليس النقد سبابا أو شتائم، إنه موقف يستند إلى حجج وقرائن غير شخصية، لكونه ينصب على قضايا ومسائل عامة. وليست السياسة فن خلق التناقضات وإدارتها، بل هي فن تقليصها وتخطيها والتخلص منها. وليس الإجهاز على الآخر هدف العمل العام، وإنما فتح أبواب الحياة العامة أمامه وجعل مشاركته فيها مصلحة وطنية وسياسية عليا، بالنظر إلى أن الصراع السلمي، التنافسي الطابع، هو الذي يقرر مكانة القوى السياسية المختلفة وأدوارها، ومواقع الأفراد وقيمتهم السياسية. لهذه الأسباب، البنيوية، يختلف تعامل المعارضة مع السلطة عن تعامل قادتها بعضهم مع بعض، وتعاملها مع المعارضة، ويتسم خطابها عنها بالعقلانية، بينما يتعاظم حجم اللاعقلانية والهيجان في خطاب السلطة عن مجتمعها ومواطنيها، ناهيك عن خصومها، المتهمين دوما، وبغض النظر عما يفعلونه أو يقولونه، في وطنيتهم!.

مزقت السلطة المجتمع السوري، لأن تمزيقه كان ضروريا لتوازنها وديمومتها. وحين واجهت الأزمات، عالجتها كل مرة بتطهير طال صفوفها، أخذ مؤخرا صورة تمزق ذاتي وصراع دموي، قالت إنه ضروري لوحدتها. واليوم، تتكرر التجربة في شرط داخلي وإقليمي ودولي مختلف، بينما يغادر سفينتها الكبار من قادتها وممثليها، احتجاجا على إغراقها بيد القوى التي تقودها، وتقوض بسياساتها مصالح النظام في ظرف تبدل استراتيجي عالمي خطير، يتخطى أية اعتبارات تكتيكية تفرضها التطورات الجزئية، محلية الطابع.

عاش الشعب في الشهر الأخير أحداثا سلطوية أظهرت كم انحدر مستوى النظام وارتقى مستوى المعارضة، وكم فكر النظام خلال العقود الأربعة الماضية بمصالحه الضيقة، وفكرت المعارضة بمصالح الوطن والدولة العليا، وكم كانت صحيحة مقولة إن في وطننا عالما يموت وعالما يولد.

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنش